القط

للكاتبة الأسبانية أنا ماريا ماتيوث

ترجمة حسين القباني

كانت الطفلة فى التاسعة من عمرها، وكانت مشغوفة بجمع المرايا المكسرة وكل ما يلمع من حطام • كانت تبحث دائما عن هذه النفايا اللامعة فى أكوام القمامة والاعشاب ، وكلما لمحت شيئا يبرق ، التقطته ودسته فى جيبها ذى الازرار المخيط فى جانب ثوبها . وبعض الاحيان كانت الشظايا تجرح أصابعها، الا أنها لم تكن تبكى قط ، وانما تعود الى هوايتها بمزيد من الاصرار •

وكانت دائما مشغولة بالبحث عن الانجم الهاوية فى هيئة حطام زجاجات، أو دبابيس أو قطع من الصفيح • وكان

المؤلفة

القصة المنشورة هنا ، انموذج ممتاز من القصص النفسى . وانك لتجد شخصيات آنا ماريا تمتاز بالحيوية ومتوافر فيها الأبعاد الثلاثة للشخصية بحيث تنم عن قوة الملاحظة وعمق التصوير ، وكذلك لا يستطيع القارىء أن يختلف مع الكاتبة فيما يتعلق بمنطقها أو مفهومها عن الحياة وهى تكشف أيضا عن فهم عميق للعقل البشرى ، لا سيما فى طبقة البالغين الذين يتصرفون كالأطفال .

وقصة القط « نوستو » احدى قصص مجموعتها القصصية الصادرة بعنوان «الزمن» ، وقد ولدت آنا ماريا ماتيوث فى عام ١٩٢٦ من أبوين ينتميان الى مدينة قسطلة • ولم تستطع استكمال مراحل دراستها بسبب الحرب الاسبانية الأهلية ، ولكن مواهبها الادبية ظلت تنمو بدون انقطاع . وقد نشرت روايتها الاولى وهى فى الثامنة عشرة وظل نجمها يرتفع باطراد فى سماء الادب حتى أصبحت من كبار الكتاب فى ميدان الادب الاسبانى المعاصر • ويعتبرها الكثيرون أعظم كاتبة — بين الكاتبات — فى أسبانيا اليوم وقد ترجمت روايتها « مدرسة فى الشمس» الى اللغة الانجليزية ونشرت فى أمريكا هذا العام ونالت تقدير الكثيرين من النقاد .

« المترجم »

الرجل الكسيح الذى يبيع السجاير ـ مفردة ـ وحجارة القداحات يعرف أمر هوايتها هذه ، ومن ثم يحتفظ لها بالورق المفضض الذى يبطن علب السجاير . وكانت الطفلة تلصق كل شىء على جدار كوخها ، بجوار النافذة ، وعلى هذا النحو كانت الاضواء ـ عندما يأتى المساء ـ تنساب من الحانة المواجهة للكوخ، وتنعكس على مجموعاتها وتضيئها بأنوار مختلفة الدرجات مما يجعل الطفلة تعتقد بأن لديها من مباهج الالوان أكثر من أى شخص آخر .

وكان جسم الطفلة هزيلا ، وقد اكتست ذراعاها وساقاها بالخدوش ، اما شعرها فكانت تمضى به غير ممشط، وحسبها شريط أحمر تديره حول رأسها ولم يكن لديها غير زوج واحد من الاحذية أكبر مقاس عن قدميها . وفى بعض الاحيان ، عندما تجرى ، كانت تفقد احداها وكانت تعيش مع جدها فى كوخ مكون من غرفة واحدة ، ونافذة واحدة، وموقد واحد، وحصيرتين للنوم .

ولم يكن الجد غير عجوز أعجف ممصوص كالليمونة المعتصرة ، لا يكف عن الشكوى من هذه النفايات البراقة التى تأتى بها الى الكوخ، ويهدد بالقائها الى صناديق القمامة ، ولكنه كان فى بعض الاحيان لا يملك نفسه من النظر اليها ، عندما يأتى المساء وتنساب الاضواء من الحانة المواجهة ، ثم يهز رأسه وهو يعتقد ، ولا شك ، انها شىء رائع .

ولكن الجد كان يعانى فى الايام الاخيرة من نزلة برد شديدة ، ولم يكن من ثم يستطيع الخروج الى الشارع . لم يكن فى مقدوره مع الطفلة أن يحمل آلته الموسيقية ويدفعها بالعربة فى الشوارع ويستعطف بنغماتها قلب القدر .

وكان سكان الاكواخ القريبة يعطفون عليهما . ولكن كان لهم متاعبهم الخاصة، بل ومرضاهم أيضا . ومع هذا كانت المرأة المقيمة بالكوخ المجاور تأتى فى بعض الاحيان وتكنس أرضية الكوخ وتشعل الموقد . وكانت امرأة طيبة حتى عندما تمعن فى الصياح وتقول انها لا تفهم سببا لوجود هذه المجموعة من قطع الزجاج والورق البراق ملصقة على الجدار ، وكم من مرة وصفتها قائلة « يالها من نفايات تافهة » .

وحدث ذات مرة أن جاءت ثلاث سيدات من حى سان أنطونيو وأعطينهما نحو خمسين درهما وزجاجة شراب للسعال . وقد حملقت احداهن فى كنوز الطفلة وخطر لها انها موضوعة لتزين الجدران العارية . وفى اليوم التالى أرسلت السيدات صليبا ليوضع على أحد الجدران ووضع الصليب على الجدار المواجه للكنوز البراقة . ولكنه ، أى الصليب ، أثار قلق الطفلة الى حد كبير لا سيما عندما كانت تختلس جرعات من شراب السعال الخاص بجدها، وكان شرابا حلو المذاق له نكهة النعناع .

وفى ذات صباح من ذلك الشهر ، يناير ، وبينما كانت الطفلة تبحث عن النفايات البراقة فى صندوق القمامة الكبير القريب من الكوخ ، لمحت قطعتين

مستديرتين لامعتين بالقرب من الصندوق ، لهما لون الفاروز وبريق المرآة . كانتا عينى قط قبيح المنظر هزيل الجسم ناحل الفراء يموء كطفل وليد . وانحنت الطفلة عليه ورأت أنه مصاب بجرح فى مخلبه لعله نشأ من حجر ألقى به عليه ثم ترك مهيضا . وكان فراؤه محمر اللون ، ناحلا بسبب الرعشة وكان يرتعش بقوة . والتقطته الطفلة ،وحملته تحت ذراعها . فلما رآه جدها ، صاح مهتاجا كعادته كلما رآها تحمل الى الكوخ شيئا جديدا .

ـ ارمى به بعيدا .

ولكن الطفلة بحثت عن قطعة خشب صغيرة وصنعت منها جبيرة وربطتها برفق الى مخلب القط بعد أن طهرته بقليل من الخل . وبعدئذ خطر لها أن تطلق عليه اسما .

وتذكرت انها بين الحين والآخر تمر أمام بيت كبير فى شارع غير بعيد ، وكانت تقترب ببطء من قضبان السياج، ثم تثب الى الحديقة وتتسلل الى احدى النوافذ المنخفضة وترنو الى داخلية الغرف . وكانت تشعر عندئذ بنفس الرهبة التى تخامرها عندما تنساب أضواء الحانة وتنعكس على كنوزها اللامعة . الا أنها لم تكن تستطيع أن تمكث طويلا ، لأن كلبا ضخما يدعى فوستو ، كان دائما ينطلق نحوها نابحا ، فتندفع هاربة وتعود الى الشارع قبل أن يعقر قدمها.

لقد خطر لها وهى تذكر عدوها هذا أن تطلق اسمه على القط الذى قالت له :

ـ لسوف نسميك فوستو أيها القط الصغير .

وشعرت دون أن تدرى لماذا : أنها انتقمت لنفسها من ذلك الكلب الذى طالما طاردها بنباحه .

انها لم تكن تريد الا أن تتفرج بالنظر الى داخلية الغرف ، تماما كما اعتادت أن تتفرج بالنظر الى انعكاسات ضوء الحانة على قطع زجاجها البراق . ولكن أحدا لا يفهم هذا ، كما لم يستطع أحد أن يفهم حبها لذلك القط فوستو رغم دمامته وضآلة حجمه .

ومنذ ذلك اليوم والقط لا يترك الطفلة . كانت دائما تحمله ، سقيما حزينا ، تحت ذراعها وكانت تعنى به كثيرا ، وتخرج للبحث عن طعام له ، وكان القط يرتعش كثيرا ، وأحيانا يبدو كأنه يسعل .

وأخذ الجو يزداد قسوة مع توالى أيام الشتاء . وبدأ الجد العجوز يكره القط ويقول انه سوف يقتله بمجرد أن يسترد صحته ، لأن هواء فوستو كان يثقل على أعصابه ويجعله يقول بصوته الأجش :

ـ انه يثير فى الانسان الشعور بالغثيان . ان الحيوانات الأخرى تخرج للبحث عن طعامها وهذا النوع يمكن للانسان أن يحتمله أما هذا ؟ ! انه أكسل مخلوق رأيته فى حياتى ، انه لا يجرؤ أن يفعل شيئا . ولقد أفسدته بتدليلك واحضار الطعام له ووضعه فى فمه . لقد أصبح ضعيفا عاجزا .

ولكن الطفلة كانت ترنو اليه فى

حنان وهى تضمه اليها بذراعها . انه لم يكن فى نظرها حيوانا عاديا كغيره من الحيوانات الأخرى . كان دائما مقرورا مهيض الجناح كأنما ألقى به فى عالم أقوى منه . فما ذنبه اذا كان قد ولد عاجزا ؟ هل يجوز أن نلومه لانه ولد ؟

وقالت السيدة الطيبة المقيمة بالكوخ المجاور عندما جاءت لتقدم مساعدتها :

ـ ان شكله فى الحقيقة منفر . وقد

صار فراؤه كالمنخل ، ويمكنك أن تعد أضلعه . يبدو أنه مريض بالسل .

وقالت الطفلة :

ـ السل ؟ وهل هو مخلوق بشرى ؟

وفى ذات صباح ، نهض العجوز من فراشه يسعل ويشهق ، وذهب كعادته ليستأجر عربة الآلة الموسيقية .

وسارا فى طرقات ضيقة ملتوية مفعمة الجو بروائح الأطعمة المشوية ، ولم يكن الجد يكف عن صب لعناته على القط قائلا :

ـ تخلصى منه .. دعيه يمضى .. انك لن تستطيعى العودة الى البيت به .. ولهذا يجب أن تعقد العزم على ..

ولكنها كانت تغمغم قائلة وأسنانها تصطك من فرط البرد :

ـ لا .. انه مثلى ومثلك ..

وكانا يسيران ببطء شديد ، لأن الجد نهض من فراشه ضعيفا لا يكاد يقوى على دفع عربة الآلة الموسيقية . وكان من ثم يقول :

ـ اننا نعمل ببطء .. واذا استمر الحال هكذا فلن نحصل حتى على ايجار العربة .

وتوقفا أخيرا فى ركن من شارع ، وراح العجوز ـ وعقب سيجارة فى جانب فمه ـ يدير مقبض الآلة الموسيقية ـ الشبيهة بالبيانولا ـ بينما كان الناس يمرون مسرعين غير حافلين .. وأخذت الشمس الفاترة تدفىء جسديهما قليلا .

وعاد العجوز يقول فى لهجة تهديدية :

ـ اذهبى وتخلصى من هذا الحيوان .

وأدركت الطفلة أخيرا أنه لم يعد جدوى من الاحتفاظ بالقط ، فأخذت تربت عليه فى اكتئاب ثم تركته يقفز الى الارض ، ثم هرعت وعبرت الشارع الى الجانب الآخر ، وراحت تستجدى

المارة بانانهـــا الألمنيوم دون أن تلتفت وراءها ·

وأخذت الطفلة مع جدها تردد أغنية يعرفها كل انســـان ولا يحبهـا أحد ، ولكنها كانت تريد أن تبكى ، وتريد فى الوقت نفسه ، أن تملأ فمها بالسكر · وراحت تفكر « آه لو استطعت أن أملأ فمى بقطع صغيرة من السكر ·· بكمية كبيرة من قطع السكر الصغيرة البيضاء· وعندئذ ســـوف أمضغها ·· وأمضغها وسيكون لها صوت حلو ·· جرش ·· جرش ·· وبهـــذا يبدو كان أذنى قد امتلأتا بالسكر أيضا » ·

وتنهـــدت بعمق ·· وأعطاهـا أحد الناس بضعة دريهمات أخذت تصلصل بها فى انائها ·

ومضيا بعد ذلك فى طريقهما ، وأخذ الجد يدفع العربة الى شارع آخر بأسرع ما فى مقدوره أن يفعل · وتبعته الطفلة وهى تعتقـــد أنه لن يكون هنـــاك فى العالم سكر يكفيها ·· فلا جدوى من هذه الأمنية · ونظرت خلفها ·

كان فوستو يتبعهـا ·· وهذا أمر طبيعـــى · وشرعت الطفلة تـــزيد من صلصلة النقود فى الاناء · وكانت عينا فوســـتو تشـــبهان قرصين من حلوى النعناع · وقالت الطفلة لنفسها :

« لو أن جدى لا يراه ، فسوف يتبعنا فوستو ·· سيأتى معنا » ·

وتذكرت فجأة أن القطط لا تضـــل الطريق أبدا · وأحست بالرغبـــة فى الضحك والقفز · ولكنها لم تفعل هذا· لأنها كانت تعلم أنه لا ينبغى أن يبذل الانسان مجهودا كبيرا الا فى العمل ·

وتوقفا عن المسير الآن مرة أخرى · وكانت أذنا الجد الكبيرتان تبدوان من فوق المطرف الملتف حول عنقه· وكانت النغمات الموسيقية المرفرفة حولهـــما مزعجة مثيرة للأعصاب · انها تخنـــق الأنفاس وان لم يكن هـذا قصـــدها · وعضدت الطفلة اصبعها · لقد أحست باحتكاك فوستو بساقيها · ونظرت فى اشـــفاق الى الأرض ·· آه ها هو ذا فوستو يرتعد ويموء بوهن · ودفعت القط بعيدا بقدمهـــا · ولكنه أبى أن يتزحزح · وعندئذ أخرجت قدمها سرا من الحذاء ·وبدأ فوستو يلعب برباطه · وسارت الفتاة بعيدا عنه ·

وكان الجد قد وصـــل الى شـــارع آخـــر · وكانت الشـــمس قد شرعت تسكب ضوءهـــا الذهبى على جـــانب الطريق · وعرجا الى شارع جانبى · ونفخ الجد فى كفيه وبدأ يدير الآلـة الموسيقية ·

ولم يلحظ أن هنـــاك ، فى أدنى الشارع رجلا آخريعزف على الأوكرديون وكان شابا كسيحا مقرون الحاجبين . وقد صرخ فى الجد مطالبا اياه بالتوقف عن العزف ، قائلا انه كان فى الشارع قبله · ولكن العجوز الذى ثقل ســـمعه بسبب نزلة البرد الأخيرة لم يسمعه أو لم يشأ أن يســـمعه ، وأقبـــل عازف الأوكرديون عليه صاخبا · وكان شابا طويل القامة قـــوى الجسم كسيحا · وقفت الطفلة تنظر اليه بهدوء ·

وشرع العجـوز وعازف الأوكرديون يتشاجران ·

قال العجوز مدافعا عن نفسه :

ـ ان الشارع للجميع ·

وكانت أطرافه لاتزال ضعيفة من المرض · لعله لايزال يعانى من الحمى· انه لم يسترد قواه تماما · وأهم من هذا كله كيف يخطر لأى انسان أن يطرده من الشارع كأى كلب ضال ·

ولكن كان الواضح تماما أن عازف الأوكرديون هو الذى وصل الى الشارع أولا · بل كان فى الشارع فعلا عندما دخله الجد العجوز بآلته الموسيقية المزعجة·· نعم·· ان عازف الأوكرديون على حق ·

لم يكن فى مقدور العجوز أن يفعل شيئا الا المسير بآلته الموسيقية الى شارع آخر وفجأة بدأت الدموع تنحدر حول أنفه . كان رجلا عجوزا .. عجوزا جدا .. هكذا قالت الطفلة لنفسها. ان الشارع ليس للجميع ·· هكذا فكرت .. وليس لأحد بصفة خاصة أيضا . ومرة أخرى شعرت بالشوق الى السكر · ·الى كثير من السكر الذى يملأ فمها ويمنعها من التنفس ·

وأطلق جدها أنه على حين غرة ومسح دموعه والتفت اليها قائلا :

ـ لماذا تعرجين ؟

ونظرت الطفلة الى قدميها ، ورأت أنها بحذاء مفرد ·

ـ أين فردة الحذاء الأخرى ؟

وهزت كتفيها ·· ولاح أن الجد يهمه كثيرا أن تعثر على الفردة الأخرى من حذائها · انه يكون أحيانا عنيدا كالسكير أو كطفل صغير · واستدار للبحث عن الحذاء ·

وكان فوستو لا يزال عند المنعطف الشارع يحك جلده فى الحذاء ويموء برفق .

واستبدت بالرجل العجوز نوبة غضب جامح . وانقض على القط وركله بعنف · ووضعت الطفلة يديها على أذنيها · ولكن عينيها لم تغمضا رغم رغبتها فى اغماضهما . وهكذا رأت كيف طار فوستو فى الهواء ثم سقط بعيدا·

وقالت لنفسها « لا شك أنه قتله »·

ثم استأنفا المسير بسرعة · وأخذت الطفلة تساعد جدها على دفع عربة الآلة الموسيقية بكل قواها ··ولم تكن تبكى·

ولكن الرجل العجوز كان متوتر الأعصاب ، مضطرب النفس جدا · وتوقف فجأة وراح يصرخ قائلا انه صار عجوزا ، ولم يعد يحتمل أكثر مما فعل ، وقال أخيرا :

ـ اننى لم أعد قادرا على الاستمرار فى العزف · ·لقد انتهيت ·

ووضعت الطفلة يديها على أذنيها ·

ثم هدأت نفسه أخيرا ، ووقف بهدوء ، ونظر الى الطفلة قائلا :

ـ هلم ·· هلم ندخل هناك ·

وأشار الى حانة صغيرة ذات نوافذ زجاجية قذرة ، وعلى مدخلها لافتة ملونة باللونين الأبيض والأحمر · وفى داخلها ، عند منصة الشرب يمكن للانسان أن يحصل على شطائر جافة ·

مائدة صغيرة ، وطلب العجوز قدحا من الخمر . وكان الجميع في الحانة يتحدثون في وقت واحد . واشترى العجوز جبنا وخبزا وأقبلت الطفلة على الطعام تلتهمه بسرعة حتى انتفخت وجنتاها وتوهجتا . وأخيرا أراحت رأسها على المائدة . وكانت مستديرة لها سطح من الرخام المكسور أشاع البرودة في جبينها ما أشد حزنها على فوستو . ولكن حزنها كان ممتزجا بغضب شديد . وفي تلك اللحظة سمعت صرير الباب ، واذا بالشاب الكسيح يدخل الحانة حاملا معزفه .

ولاح أن كل من في الحانة يعرفه . ولكن الشاب أقبل على مائدة العجوز والطفلة عندما لمحهما ، وقال بصوت متردد :

ـ سلاما يا جدى .

ولكن الجد لم يرد .. وانما شرب جرعة من خمره .

وأحضر الكسيح مقعدا وجلس بجانب العجوز ، وأخرج كيس تبغه وقدم بعضا منه اليه وعندئذ حك الجد قفاه وأخذ التبغ ، ثم شرع الاثنان ، في صمت ، يلفان سيجارتيهما .

وبدأ الكسيح الحديث بصوت خافت ودود .. وأرهفت الطفلة سمعها وهو يقول :

ـ انني لا أحمل لك الضغينة ياجدى . ولكن يجب أن ينال كل انسان حقه . وقد كنت أنا في الشارع أولا . ولا ينبغي أن يكون هناك أحد حيث أكون .. ولكن دعنا من هذا .. اننا أصدقاء .. أليس كذلك ؟

وأومأ العجوز برأسه ، ثم قال فجأة في حرارة :

ـ انني لم أسمعك لأن سمعي ثقيل .. وكنت قد امتنعت عن الخروج بآلتي الموسيقية منذ أيام . ولكن عندما كانت ابنتي ـ أم هذه الطفلة ـ على قيد الحياة ، فان الأمور لم ...

وقاطعه عازف الأوكرديون بحركة من يده كأنما يقول له « مهلا .. انني أعرف القصة كلها .. »

ثم راح يقدم نصائحه .. قال انهما يتحركان ببطء شديد .. فلو أمكن أن يزيدا من سرعة الحركة ويجوبا شوارع أكثر ، لازدادت ايراداتهما اليومية . وتناول من جيبه قلما وراح يخطط به ، على رخامة المائدة ؛ رسما للشوارع التي يؤدي بعضها الى بعض .

وأسقط أحد رواد الحانة كوبا من الزجاج على الارض ، فتحطم وهرعت الطفلة الى التقاط الشظايا ودسها في جيب ثوبها غير حافلة بما قد يصيبها من خدوش أو بما كان يقال لها « حذار أن تجرحي يديك يا صغيرة » وكان الجد وعازف الأوكرديون مستغرقين في مشاريعهما ، فلم يرياها . وبعد أن جمعت الشظايا بحذر ، تذكرت فوستو وشعرت بالأسى من أجله يكاد يخنق أنفاسها .

وقالت لنفسها .

« لنفرض أنه مات ، لنفرض أنه

مات ، فيالفوستو المسكين ، ان القط المسكين قد لا يعرف ماذا يفعل حين يجد نفسه وحيدا محروما من القوة التى تعينه على الاستمرار فى الحياة ، ومرة أخرى شعرت بالرغبة فى البكاء ·

ودخل شخص آخر الحانة مصحوبا بدفعة أخرى من الهواء البارد · ودون أن تتردد لحظة واحدة ، تسللت الطفلة من الباب المفتوح الى الخارج ·

وسارت من شارع الى آخر ·· آه ·· انها كانت هناك فى ذلك المنعطف ·· انه لا يزال فى مكانه كما توقعت ·· مكوما بجوار الجدار ، ينظر أمامه فى حزن · وانحنت الطفلة وأخذته بين ذراعيها · وسارت به على غير هدى ، وكانت تسير وهى تشعر بمرارة ·· بمرارة عميقة ألهبت قلبها وأغلظت نفسها · وظلت تسير بجوار الجدران ·

وفجأة وصلت الى أنفهما رائحة طعام

شهى ، فاقتربت ببطء من النافذة الخفيضة المتصاعد منها الرائحة · وتطلعت الى الداخل · ورأت مع القط مطبخ مدرسة كبيرة وحملقت الطفلة من بين قضبان النافذة · وكذلك فعل فوستو · وبدا كل شىء غائما بسبب السحب المفعمة برائحة الطعام آه ·· ما أروع الدفء فى ذلك المطبخ · وما أعذب رائحة الطعام ، رائحة الخبز وآلاف الأطعمة الأخرى الشهية التى يأكلها الناس كل يوم ، والتى لا نصيب فيها لهذين الاثنين ·· الطفلة والقط لقد جعلهما البخار الذهبى الدافىء يغمضان أعينهما ·وكانت أرضية المطبخ ذات مربعات كلوحة الشطرنج الضخمة· وبدا لهما أن أوعية المونية هائلة تغلى على النار ·· أو تغلى من الغضب وكان فى مقدورهما أن يريا أقدام الخادمات وأحذيتهما السوداء ، وأحرف أرديتهما

وأخذت الطفلة تربت عنق القط بلا وعى · ان هناك على المنضدة أشياء شهية لفوستو فى متناول يده أيضا ·

وفجأة انحنت على أذنيه وقالت له :

ـ هلم ياصاحبى·· اذهب الى المطبخ اننى لن أستطيع مساعدتك الى الأبد·· عليك أن تتعلم كيف تساعد نفسك ·

وأرسل فوستو مواء خافتا ، وعندئذ استبد بالطفلة الغضب ، فوضعته على القضبان ، وضغطت أنفه عليها قائلة . الآن ·· أتظن أننى سأبقى معك دائما لأساعدك ، لا يا سيدى · أدخل واحصل على طعامك بنفسك ·

ولكن فوستو تثاءب وقوس ظهره ، وحك أنفه بمخلبه ·

وقالت الطفلة :

– أيها الأفاق التعس · لسوف أريك

– انظر .. انظر الى ذلك القط ، القطط ،

كان ثمة قط أسود كبير لامع الفراء نائما تحت مقعد فى المطبخ . وكان قطا معنيا به وبغذائه وكان بطبيعة الحال أمينا مستقيم الخلق· ومن ثم لم تحاول احدى الخادمات أن تطرده من المطبخ وعلى الجملة كان يؤدى واجباته وينال من ثم كل حقوقه ·

ودفعت الطفلة بفوستو الى المطبخ قائلة ·

– هلم اذهب وتعلم من ذلك القط·

وبعد أن ألقت به داخل المطبخ أغمضت عينيها برهة ، ثم فتحتهما لترى ماذا حدث ·

رأت فوستو يتسلل ، مترددا نحو اناء موضوع فى الركن ، وكان بالاناء بقايا طعام تخلفت عن القط الأسود · وبدأ قلب الطفلة يخفق بالسعادة ·

ومرة أخرى انهار كل شيء · لقد استيقظ القط الأسود ، ونخر فى غضب ، ثم وثب على فوستو أوه ·· ياله من مخلوق أنانى · لقد كان فى الاناء طعام أكثر مما يحتاج اليه ، ولكنه رفض أن يتنازل عن كسرة من حقه . ورأت الطفلة فوستو يفر ويندفع باحثا عن الباب وقد ركبه الفزع ·ولكن الطفلة أدركت أن القط الكبير لا ينوى ايذاء القط الصغير · كان يكشف فقط عن مخالبه ويستعرض عضلاته · كانا يشبهان الى حد ما جدها والشاب الكسيح ·

واستطاع فوستو أخيرا أن يمرق من الباب · وهرعت الطفلة الى الجانب الآخر من البيت بحثا عن مدخله ، ولم يلبث فوستو أن ظهر وهو يكاد يبكى · وكانت الشمس قد خرجت من وراء السحب وأضاءت فى خفوت فراءه الذى بدا كالحا متآكلا ·

وكانا واقفين أمام صندوق فارغ ثم جلست الطفلة بجوار الجدار وبدأت تعبث بالتراب · واقترب فوستو نحوها فى تردد وكأنما أدرك أن الأمور تغيرت ولم يشأ أن يمضى لكى ترفعه الى ذراعها ، وانما اكتفى بأن تكور بجانبها وراحت أجفانه تختلج تحت أشعة الشمس الخفيفة الفاترة ·

وبقيا على هذا الوضع حينا ، ثم اذا بباب المطبخ يفتح ويخرج منه القط الكبير الأمين البارع · كان يريد أن يستمتع بدوره وينعم بأشعة شمس الشتاء . وجلس على مسافة غير بعيدة وذيله ملفوف حوله ، وشواربه منتصبة · وكان فى جملته يبدو كمخلوق سعيد مطمئن الى رزقه الدائم· وقالت الطفلة لنفسها «لاينقصه الا سيجار يدخنه كما يفعل الدوق باكو » · وكان منظره يذكرها بالدوق باكو صاحب متجر البقالة الذى كان من عادته ، بعد أن يفرغ من طعامه ، الخروج من البيت منتفخ الوجه ، لامع العينين ، ليشرب القهوة فى المقهى المجاور ·

وفجأة نظر القط الكبير الى فوستو·

وبدا للطفلة أنها ترى فى نظراته نفس المعانى التى كانت تراها فى نظرات الدوق باكو عندما كان يلقى اليها بقطع السكر · وظل القط الأسود يرنو الى فوستو مدة طويلة ·· طويلة جدا · وفجأة تذكرت الطفلة صوت الشاب الكسيح وهو يقول لجدها :

« سلاما يا جدى ·· اننى لا أحمل لك أية ضغينة ، ولكننى كنت فى الشارع أولا ··· » وكان على حق · ان الطفلة بدأت تفهم الأمر على هذا النحو · وكادت تبكى من فرط الغضب· وقالت لنفسها « طبعا انه يصيد الفيران من المطبخ ، ولهذا يطعمونه ويحبونه »·

وشعرت أن عليها أن تتيح لفوستو فرصة أخيرة· وتذكرت أن هناك كنيسة صغيرة قديمة بالقرب من المكان · وكان القساوسة فيها يعطونها بين الحين والآخر صور القديسين ، وانها لتتذكر أنها سمعت بأن مكتبة الكنيسة مليئة بالفيران · فيران كبيرة منفرة تأكل الورق والشموع ·

وحملت فوستو بين ذراعيها بسرعة ، وانبدفعت تجرى حتى اذا وصلت الى الكنيسة ، أدركت مدى المسافة التى قطعتها · فقد أحست كأن جسمها امتلأ بالدبابيس ، وأنها لاتكاد تقوى على الحديث· وكان كل شىء داخل الكنيسة مظلما ·

ودخلت المكتبة ·· ورأت القسيس فيها ، وظهره اليها ، وكان يبحث عن شىء فى أحد الأدراج ، فاقتربت منه ولما رآها قال لها :

ـ ماذا تريدين أيتها الصغيرة :

وحاولت أن تشرح له الموقف بقدر ماتستطيع · ولم يفهم هو الحقيقة فى أول الأمر ، اذ حسب أنها تريد أن تبيع له فوستو ، ومن ثم قال لها :

ـ لا لا ·· ان لدى قطتين جميلتين جدا ·· أجمل كثيرا من قطك هذا ·

ـ ولكننى أريد أن أقدمه لك هدية حتى يصيد الفيران نظير ما تقدمه اليه من طعام ·

وصمت القس برهة ، وأخيرا ابتسم· وكان رجلا ناحل الجسم شاحب اللون، على خده شامة فى حجم التوتة . وقال فى النهاية :

ـ حسنا جدا ·· دعيه هنا ·

ثم قدم اليها يده لتقبلها · وتركت الطفلة فوستو على الأرضية وأغلقت الباب وراءها بسرعة حتى تمنعه من اللحاق بها ، وغادرت الكنيسة على أطراف أصابعها حتى وصلت الى الشارع ثم انطلقت تعدو وكأنما يطاردها قطيع من الذئاب ·

ولم تشعر بالرغبة فى العودة الى جدها · فلاشك أنه سيشتد فى تعنيفها · لسوف تنتظر حتى يهبط

الليل وتعود الى الكوخ لتنام · وكانت تشعر بارهاق شديد وكانما يجثم عليها ثقل ضخم ، كما أحست بفراغ هائل فى معدتها · ومضت الى صندوق للقمامة بجوار الجدار ، ونامت بجانبه بعد أن تكورت فى ثوبهـــا وحاولت أن تخفى يديها فى أكمامها ·

ولما استيقظت وجـدت الشمس قـد اختفت تماما والبرد قد اشتد · ودلكت ذراعيها وضربت الارض بقدميها ·· ثم اذا هى تتذكر فوستو ·

وقالت لنفسها فى أمل « ان فوستو الآن مثـل غيره من القطط » ثم راحت تتساءل عنه فى قـــرارة نفسها وهى تشعر بالحزن والقلق ·

ووجدت نفسها ، بلا ارادة ، وبلا فهم للسبب، تندفع نحو الكنيسة ، وتدخلها وتبحث عن القس · ولكنها وجدت قسا آخر ·· رجلا قصـــير القـامة ، قبيح الشكل ، مشغولا بتنظيف أحد القناديل وقال لها :

ـ ماذا تريدين ؟

وشرحت له مهمتها ثم قالت :

ـ لقد أحضرت قطا احمر اللون لصيد الفيران ، فهل يمكن أن أراه ؟

ـ آه .. تذكرت ، اذن فهذا قطك ؟ أتعرفين كيف وجدته ، وجدته يلعب مع فار . ووجدت الفار يركبه ويعبث به .

ونظر فوستو من تحت أحد المقاعد بعينين حزينتين مستسلمتين وحملقت الطفلة اليه فى صمت بينما استطرد القس يقول :

ـ ان خير ما يمكن أن تفعليه بهذا القط هو القاؤه فى البحر . انه لا يصلح لشىء . بل انه ليس جميلا اقتليه .. أرحيه من شقائه لأنه مريض جدا .

وتمتمت قائلة :

ـ لا ..

ولكنها أطرقت برأسها فى أسى .

ـ حسنا . ماذا تريدين أن تفعلى ؟ اذا لم تأخذيه ، فسوف أقتله أنا .

وظلت الطفلة فى مكانها وقد زوت مابين حاجبيها وزمت شفتيها . وبدا فمها كأنه خط أبيض فى وجهها . وبعد أن نظرت طويلا الى فوستو ، استدارت وغادرت الكنيسة وهو فى أعقابها برأس مطرق .

وفى الشارع جلست الطفلة على الطوار ، وتمدد فوستو بجوارها . ورفعت من رأسها الشريط الأحمر ولفته حول عنق فوستو ، ثم وقفت تتأمله بنظرات فاحصة وهى تقول :

ـ لا .. انك لست جميلا ، ولن يشتريك أحد .

وفجأة توقف فوستو عن الارتعاد . وتألقت عيناه ببريق عجيب ولكنها لم تعودا تشبهان النجوم ، بل لم يكن هناك قطعة زجاج تشبه النجم حقا . ان النجوم تلمع فى السماء .. بعيدا .. بعيدا جدا وهى الآن واثقة تماما بأنك اذا نظرت اليها من قريب لوجدتها تختلف جدا عما تبدو من بعيد .

وامسحت الطفلة فوستو من قائمتيه الخلفيتين وضربت رأسه فى الطوار . وشهق فوستو للمرة الأخيرة وكان فى هذه المرة يشبه فى شهيقه الرجل .

وتركته ممددا بين دمائه التى تزداد وهى تنبثق من رأسه المحطمة .

وأغلق فوستو عينيه الى الأبد .

وعادت الطفلة الى الكوخ . وكان الجد قد آب وراح يحصى ماجمعه من نقود ولما رآها واقفة تنظر اليه فى باب الكوخ ، قال لها :

ـ ادخلى أيتها المتشردة .

وسعل . وسعل مرة أخرى .

ودخلت الطفلة وهى تنظر اليه بامعان ، ثم سألته قائلة :

ـ هل حصلت على كفايتك من النقود اليوم ياجدى ؟

ـ لا ، ولا ، ولا .. واذا كان الأمر يهمك فانى لم أحصل على نصف ايجار الآلة الموسيقية .. وعلى هذا ...

وخلعت الطفلة ثوبها وحذاءها . وسقطت خصلات من شعرها بعد أن رفعت الشريط عنه على جبينها وعينيها ، ورقدت على الحصيرة واشتملت بالبطانية . وكان الضوء المنساب من الحانة المواجهة يسطع . وفى داخلها كان بعضهم يغنى ويصرخ . وعلى أديم الشارع كانت تسمع وقع أقدام الرائحين والغادين . وتطلعت الطفلة الى السقف فاذا هو مظلم وجد قريب . وخطر لها أنها وجدها فى حاجة الى سراج أيضا .

وقالت فجأة :

ـ جدى . لقد قتلت فوستو . انه لم يكن صالحا لشىء .

ورفع العجوز رأسه وفتح فمه

وخامره لون غريب من الخوف .. احس بخوف غامض كالهواء الذى يعبث بالشموع ، أو كالأصوات التى ليس لها أصداء . وشعر بعظامه تتصلب فى جسمه ، وبدت بشرته فى لون بشرة الميت . واستطردت الطفلة تقول بصوت واضح رنان :

ـ جدى .. اننى أراهن بأى شىء على أنك ستموت قريبا جدا .

وتثاءبت ، واستدارت بوجهها نحو الحائط . ولم تلبث أن استغرقت فى النوم . وبدت احدى يديها خارج الغطاء تحيلة معروفة لامعة مثل احدى نفايات الزجاج الملتصقة على الجدار .

وفجأة شرع العجوز يبكى وهو يعتصر النقود التى كان يحصيها فى كفيه بعنف . وبحث بنظراته عن الصليب المعلق فى صمت وسكون على الجدار . ولم يلبث أن انفجر يبكى داعيا لفوستو المسكين مترحما عليه .

ولكن الطفلة كانت مستغرقة فى النوم ، ورواد الحانة يشربون ويضجون ، وأقدام كثير من الناس تروح وتغدو على الطريق . ولم يسمعه أحد ، أو يهتم بأمره أحد .